الباب الخامس

أثر الفتح الاسلامي على العرب

obeikan.com

obeikan.com

الرسول يحدث تغييراً حقيقياً

لقد استطاع الاسلام في مدة لا تتجاوز سنواتها عدد أصابع اليدين أن يحقق أعظم انجاز في منطقة كانت لها تلك الصفات والمميزات وأن يحدث تغييراً حقيقياً وجذرياً في عواطف وسلوك وعقلية وأخلاق تلك الأمة، وفي مفاهيمها وأن ينقلها من العدم إلى الوجود ومن الموت إلى الحياة ولقد عبّر عن ذلك جعفر بن طالب لملك الحبشة بعدما بيّن له الأوضاع المتردية التي كان يعيشونها قبل مبعث الرسول (ص) فقال :فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لتوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم.

كان ظهور الإسلام أعظم حدث في تاريخ العرب، وبداية تحول خطير في حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وكان له أكبر الأثر في حياتهم حيث أدّي إلي تغيير تام في معالم هذه الحياة، وتبدل في مقاييسها ونُظُمها ومرافقها، كما بدّل من نفسية العربي وشخصيته ونمط تفكيره.

علي الصعيد الديني : قضي الإسلام علي الوثنية وقرر التوحيد المطلق للّه في الذات والصفات والتوجه له بالعبادة وحده، جاء في القرآن : وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ لا إلهَ إلاّ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ أفاد المؤمن من عقيدة التوحيد الاستقلال والحرية، فليس لأحدٍ عليه سلطان وصفتي الأنفة والعفّة، من اعتقاده أن لا رزاق إلاّ اللّه والشجاعة وعدم هيبة الموت؛ لانّ الذي يملكه هو اللّه وحده وبذلك ارتفع إلي العزّة والإباء والاستشهاد في سبيل الحق.

وحارب الشرك باللّه ؛ لأنّه وليد الجهل والوهم «وَمَنْ يُشْرِكْ باللّه فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً كما دعا إلي ان وراء هذه الحياة حياة أخري، يحاسب فيها كلّ انسان علي ما أتي من خير أو شر، فالإنسان يعزّ عليه أن لا ينال الخير أجره، وان لا يلقي الشر جزاءه، والإعتقاد بوجود إله عادل يستتبع حتماً جزاء علي الخير والشر، فان لم يتم العدل في عالم الأرض فلابدّ أن يتم هناك في عالم آخر «أفَحَسِبْتُم أنّما خَلَقْناكُم عَبَثاً وأنَّكُم إلينا لا تُرْجَعُون » و«للّه ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ، وإنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُم أو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بهِ اللّه ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعذّبُ مَنْ يَشاءُ، واللّه علي كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ».

والايمان بالملائكة يوجب الاعتقاد بأنّ للانسان حياة روحية، وأنّه يجب عليه تنشيط هذه الحياة، والاستجابة لعوامل الخير التي أودعها اللّه فيه، والغرض من ذلك التسامي بالانسان والرقي به الي أعلي درجات الكمال لهذا جعل الاسلام والايمان بالملائكة ركيزة من ركائز الدين قال تعالي:«آمَنَ الرّسُولُ بما أُنْزِلَ اليهِ مِن ربِّه والمؤمنُونَ، كُلٌّ آمنَ باللّه وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ».

كما أوجب الإيمان بالقرآن وبما سبقه من الكتب التي أنزلت علي رسُل الأُمم الماضية في صورتها الحقيقية، والاعتقاد ببعثة الرسل وتصديقهم، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم وهي ميزة اختص بها الإسلام؛ وأراد بها التوفيق بينه وبين غيره من الأديان، ووضع أساساً للتعارف والإخاء والوحدة بين شعوب الأرض، والاعتقاد بخاتم هؤلاء الرسل محمّد صلي اللّه عليه وآله وسلم وان رسالته الي الناس كافة والي جميع شعوب الارض «قُلْ يا أيُّها الناسُ إنّي رَسُولُ اللّه إليكُم جَميعاً » وجعلها اللّه خاتمة جميع الرسالات السابقة، وناسخة لما تقدم منها، ومكملة ومتممة للاديان السابقة «اليومَ أكملتُ لكم دينكُمْ وأتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتي وَرَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً ».

وفرض الإسلام علي معتنقيه عبادات جديدة ربطت بين قلوبهم ووحَّدت صفوفهم، كالصلاة والصيام والزكاة والحجّ فالصلاة هي التي تمد الجماعة الانسانية بالقوي الروحية التي لابدّ منها لصلاح المجتمع، وتخلق في الإنسان عقيدة اطاعة أوامر الله وتدعوه إلي التماس العون من الله اضافة إلي وقوف المسلمين دون فارق أو تمييز يؤدون حركات واحدة ويبتهلون ابتهالات واحدة متجهين إلي قبلة واحدة.

وفي رمضان يؤدي المسلمون فريضة الصوم بما فيها من صفاء للنفوس وتطهير للقلوب، فهي طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس وتقوية الإرادة، وعلاج نافع لكثير من الأمراض النفسية والإجتماعية بالإضافة إلي ما فيه من الفوائد الصحية ويؤدون الزكاة التي تجعل للفقير حقاً معلوماً في أموال الأغنياء؛ ليكون ضماناً اجتماعياً ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الأمة.

وفي الحج يجتمع المسلمون من كل حدب وصوب في بيت الله تأكيداً علي عمق إيمانهم ورسوخ عقيدتهم،وسعياً للرحمة والغفران والحج مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم إلي مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر، ووسيلة لتحقيق الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية.

وقرر الإسلام ان لا قيمة لإنسان إلاّ بما يعمله، وان الإيمان المصحوب بالعمل الصالح وسيلة إلي النعيم الدنيوي«من عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنْثي وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيّبةً وَلَنَجْزِيَنّهُم أجْرَهُم بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْملُونَ»كما ان ليس خير الناس أكثرهم مالاً ولا أعزّهم نفراً «إنَّ أكرمَكُم عِنْدَ اللّه أتْقاكُم» وكان لهذه العقائد والتعاليم الجديدة أثرها الواضح في رفع المستوي العقلي للعرب، فتغيرت قيمة الاشياء والاخلاق في نظر العرب، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيم أخري، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس.

علي الصعيد الفكري والنفسي :

حارب الإسلام كثيراً من الخرافات والاوهام كالعرافة والقيافة والكهانة والزجر والصدي والهامة والرَّتَم والتعشير وما إلي ذلك ودعا النّاس إلي التفكير المنطقي والتأمل العقلي وطلب العلم والمعرفة، فحرّك العقول،وفتح الأذهان علي أمور كان من شأنها أن بدّلت في المعادلة العقلية عند العرب وغيرت نفسيتهم، فقد أُتيح للعقل في الإسلام مجال واسع للنظر في سرّ الوجود وإدراك حقيقته وماهيته، وقد نصّت آيات كثيرة علي تأمل خلق السموات والأرض وما بينهما من كواكب وأفلاك وجبال وبحار وحيوان وطير وحشرات، ودعت الإنسان ليتفكر في تعاقب

اللّيل والنهار والشمس والقمر. قال تعالي:«أوَلَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَموات والأرْضِ، وَما خَلقَ اللّه مِنْ شيءٍ وأنْ عَسي أنْ يَكُونَ قَد اقْتَرَبَ أجَلُهُمْ فبأيّ حديث بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ »وقوله تعالي: «وآيةٌ لَهُمُ اللّيلُ نَسْلَخُ منه النهارَ فإذا هُمُ مُظلِمُونَ * والشَّمْسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لَها، ذلِكَ تقديرُ العَزِيزِ العَليم * والقَمَرَ قَدَّرناهُ منازِلَ حَتّي عادَ كَالعُرْجُون القديمِ * لا الشَّمسُ يَنبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللّيلُ سابِقُ النّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » وقوله تعالي : «فليَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق ».

كما حث علي تحكيم العقل في كل ما يعرض للإنسان من أمر، وقد ذكر القرآن العقل باسمه وأفعاله زهاء خمسين مرة، وذكر كلمة «أُولو الألباب » أي أصحاب العقول في بضع عشرة مرة، وذكر العلم في مواضع من آياته تناهز المائة وذكر مشتقاته أضعاف ذلك بين أن العقل نعمة كبري وأنّه لابد من استخدامه واللجوء إلي حكمه فيقول تعالي في تذييل كثير من الآيات القرآنية :«إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقلُون » «ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون » «أفلا تعقلون» فالقرآن رفع العقل مكاناً علياً، لأنّ العقل السليم هو الذي يرتضي الفضائل التي دعا اليها الإسلام، فمثلاً الوفاء بالعهد خلّة محمودة يحرص عليها فقط العقلاء الفضلاء، ونكث العهد رذيلة يأنفون منها؛ لانّها منقصة فنحن لا نعرف فضيلة وقد أمر الدين

بها إلاّ وقد ارتضاها العقل السليم وأيدها، وهشّ لها الضمير الحي وسدّدها، وليس هناك رذيلة وقد نهي الدين عنها وبغضها إلاّ ورفضها العقل السليم وقبحها ونفر منها الضمير الحيّ وأنكرها.

والإسلام حضّ علي العلم؛ لأنّه يعلم أن الشخصية الإنسانية لا يقومها ولا يرقيها ويشحذ قواها إلاّ العلم، ومن هنا كان تفريقه بين العلماء وغيرهم قال سبحانه : «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يعلمُونَ إنّما يَتَذّكرُ أولُوا الألبابِ »، ولا ريب ان العلماء هم أكثر الناس فهماً لآلاء اللّه ووعياً لحكمة آياته وتمثلاً لبديع قدرته:«وتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للنّاسِ وما يَعْقلُها إلاّ العالِمُونَ »وان لهم درجات عند ربّهم وميزات يخصهم بها «يرفَع اللّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ »وقوله تعالي :«إنّما يَخْشي اللّه مِنْ عِبادِهِ العلماءُ ».

ومن ناحية أخري تري القرآن يسجل علي الذين لا يعلمون حكماً لا يرضاه ذو إدراك لنفسه:«كذلِكَ يَطْبَعُ اللّه علي قُلُوبِ الذينَ لا يَعْلَمُونَ ودعا إلي اقامة البرهان اليقيني القاطع علي كلّ شيء يراد أن يعرف حقيقته «قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُم إن كُنْتُم صادِقِينَ » وعدم اللجاج والجدل غير العلميين «ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ في اللّه بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كِتابٍ مُنيرٍ ».

وأمر عباده المسلمين بأن يتقيدوا بالأسس العلمية ولا يتوهمون ويظنون كالدهريين والجاهليين «ولا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بهِ عِلْمٌ، إنَّ السَّمْعَ والبَصَر والفُؤادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسئُولاً»؛ لانّ الظنون والأوهام هما السبب في تضليل النّاس وإفساد معتقداتهم : «وإنْ تُطع أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ اللّه إنْ يَتَّبِعُون الاّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصُونَ » وحارب بكل قوة ذلك الإنسياق الأعمي، وشدّد النكير علي الذين كانوا يتمسكون بالرأي، لا لانّهم عقلوه، لكن لأنّ آباءهم فعلوه : «وإذا قيلَ لَهُم : تَعالَوا إلي ما أنْزَلَ اللّه وإلَي الرَّسُول، قَالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عليه آباءَنا، أوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يعلَمُونَ شيئاً ولا يَهْتَدُونَ ».

ونهي أيضاً عن التقيّد بوجهة نظر واحدة، وذلك بدعوته للأخذ بالأحسن، وهي نزعة جديدة في الإخلاص للحقائق لم تتجلّ علي أكمل حالاتها الاّ لدي مفكري القرن التاسع عشر الذين أدركوا : أن الحقائق المطلقة لا يمكن أن تكون وقفاً علي فلسفة مقررة محدودة بل يجب عليهم أن يأخذوا بأحسن ما يجدونه من جميع الفلسفات، وان اسلوباً واحداً من البحث لا يصحّ أن يحتكر أحسن طرق الوصول اليها.

وهذا المبدأ هو الذي دعت إليه الحكمة القرآنية منذ أربعة عشر قرناً في قوله تعالي:«الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتّبِعُونَ أحْسَنَهُ أولئِكَ الذينَ

هَداهُمُ اللّه وأولئِكَ هُمُ أُوْلُو الألبابِ » وهو في ذلك يركز علي الاجتهاد ويرفض الجمود ويطلب البحث عن البرهان وقبول الدليل وتغيير الرأي دون حرج متي يتبين أن غيره أصحّ منه.

وجعل من أهملوا استخدام عقولهم في الدنيا «كالانعامِ بَلْ هُمْ أضلُّ سَبِيلاً » ولذا يقول في الآخرة بعضهم لبعض «لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ » وأعدّ للعلماء ميزات خاصة ومنزلة لا تضاهيها الاّ منزلة المؤمنين «يرفَع اللّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ ».

كما ان اللّه اعتد بشهادة أهل العلم علي وحدانيته فقال : «شَهِدَ اللّه أنّهُ لا إله إلاّ هُوَ والملائِكَةُ وأُوْلُو العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ » كما جعل الإسلام قداسة العلم مضارعة لقداسة العبادة؛ لانّه يعتبر العلم في ذاته من أسمي العبادة وكذلك جعل مداد العلم يوازي دم الشهادة وكذلك فرّق الإسلام بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية التي ليس لها قيمة إلاّ ان تكون للزينة فقط، ودعا إلي نبذ لغو الحديث الذي يضل الناس بغير علم كما بين الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فضائله حيث قال : «ان العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأُذنه الفهم،ولسانه الصدق، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأُمور،

ويده الرّحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته التورع، ومستقره النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسبقه الرضا، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه الموادة، ودليله الهدي، ورفيقه محبة الأخيار».

ويقول محبة العلم دين يدان به يكسب الإنسان الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته فكان في التعليم ما يحث علي العطف والتحاب والتعاون والتآخي والرحمة،فاكتسبوا الرقّة في القلوب واطّرحوا خشونتهم وتركوا العنجهية والفخر الجاهليين.

علي الصعيد الخلقي :

كان هناك للعرب بعض الصفات الخلقية كالكرم والشجاعة، والتضحية واباء الضيم وحماية الجار وغيرها،الاّ أنّها باتت تضعف وتتغير معاييرها الأساسية عندما تغلبت العصبية والتناحر فيما بينهم، وما نتج عنه من سلب ونهب واغارة وابتزاز؛ وذلك لظروفهم الاقتصادية وخضوع حياتهم لناموس تنازع البقاء.

لقد وضع الدين الجديد معطيات جديدة وأسساً متكاملة؛ حيث وضع للأخلاق مثلاً عليا تخالف الجاهلية، فكان من أهم أهدافه التأكيد علي المبادئ الاخلاقية التي تحلي بها العرب قبل الإسلام بشرط أن تكون حميً للعقيدة وحصناً للحق،وظهيراً للخير، ووسيلة إلي نصرة المظلوم، ونجدة المهضوم، وإنصاف الضعفاء، ونفع الناس، ولا يرتضي أن تتخذ وسائل للعدوان، أو مظاهر للاستعلاء، أو دعائم للإفساد في الارض وإذلال الضعفاء.

فمثلاً كان الكرم خلقاً فاضلاً في الحياة الجاهلية، طالما باهي به المفتخرون وأشاد به المادحون، وكان البخل رذيلة طالما هجا بها الشعراء، وبرئ منها الاسخياء، ولكن كرم العرب في الجاهلية كان من املاء البيئة وكان وسيلة من وسائل الفخار والكلف بحسن الاحدوثة.

أمّا الكرم الذي دعا إليه الإسلام فإنّه كان مظهراً لسخاء النفس وكرم اليد ورحمة القلب وابتغاء ثواب اللّه ، ومبعثه أن المال مال اللّه ، وأن صاحبه خليفة عليه موقوت، لابدّ أن يتركه لسواه، وأن هذا المال ليس حقاً لمالكه وحده، بل له شركاء فيه من الفقراء والمساكين وغيرهم، وغاية هذا الكرم ليست أبهة أو مباهاة أو سيادة او عطفاً مشوباً برياء،

بل القربي إلي الله والشوق إلي ثوابه. ولهذا حضّ الإسلام علي البذل، وآثر أن يكون بعض البذل في خفاء.

وكانت الشجاعة في الجاهلية وسيلة لعدوان الاقوياء علي الضعفاء، وطالما خايل العرب بقوتهم وبغلبتهم علي غيرهم، وبعدوان القادرين علي من هم أقل منهم مقدرة. فلما جاء الإسلام وجّه الشجاعة إلي نصرة الحق وحماية الدين، ونجدة المظلومين المضطهدين، فارتفع بدلالتها عن العدوان إلي الجهاد.

ومن الفضائل التي أراد بها الإسلام إحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه، هي التقوي والتي جعلها المحور لكل الصفات الخيّرة، والفضيلة التي تدور الفضائل كلها في ملكها الرحيب، ولهذا وصف الله المتقين بأنّهم الذين تحلوا بالفضائل الإنسانية الحقّة : «ليسَ البِرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِب، ولكنَّ البِرَّ من آمنَ باللّه واليومِ الآخرِ، والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ، وآتي المالَ علي حُبّهِ ذَوي القُربي واليتامَي والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ، وأقامَ الصلاة وآتي الزكاة، والمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إذا عاهدُوا، والصابرينَ في البأساءِ والضّراءِ وحينَ البأسِ، أولئكَ الذينَ صَدَقُوا وأولئكَ هُمُ المُتّقُونَ».

ولا تقتصر التقوي في القرآن علي هذه الصفات، بل يضاف إليها الصفات التالية : فالعدل من التقوي. قال اللّه تعالي : «اعدِلُوا هُوَ أقَربُ للتقوي »والعفو من التقي أيضاً، قال اللّه تعالي : «وأنْ تَعْفُوا أقربُ للتقوي »والصدق في قوله تعالي : «يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتقُوا اللّه وكُونُوا معَ الصادقينَ » والأمانة فرع من التقوي، قال تعالي : «فليؤد الذي اؤتمن أمانته، وليتق اللّه ربّه ».

وإصلاح ذات البين مرتبط بها في قوله تعالي : «فاتّقُوا اللّه واصلحُوا ذاتَ بينكم » والكسب الحلال متصل بها في قوله تعالي : «يا أيُّها الذين آمنُوا اتّقُوا اللّهَ، وذَرُوا ما بَقيَ مِنَ الرِّبا » وهكذا عشرات الخصال الحميدة إنّما هي وليدة التقوي وما من شك في انّ الذي يتقي ربه يحبه ويطيعه ويعمل ما يستحق عليه ثوابه، ويكف عما ينزل به عقابه، فيحيا في طهارة نفس، وصلاح عمل، وثراء من الخير والحق، وينفر من كل شر، ويتجافي عن كل رذيلة ونقيصة ولن يكون التقي إلاّ كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفياً رحيماً غيوراً متحلياً بكل فضيلة، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة.

كما دعا الإسلام إلي الإستقامة «فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ » واصلاح النفس «فَمَن تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأصْلَحَ فإنَّ اللّه يتُوبُ عليهِ... » وتزكيتها «قد

أفلحَ مَنْ تَزكّي » وإلي الإصلاح بين الناس «إنّما المؤمِنُونَ إخْوَةٌ فأصْلِحُوا بينَ أخَوَيْكُمْ » والدعوة إلي الخير «ولتَكُنْ مِنْكُم أمّةٌ يَدْعُونَ إلي الخَيْرِ وَيَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكرِ، وأولئِكَ هُمَ المُفْلِحُون » وإلي الكلام الحسن «وقُل لِعبادي يَقُولُوا التي هيَ أحْسَنُ... » والصفح الجميل «ادْفَعْ بالتي هِيَ أحْسَن » وطيب الكلام «مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فللّه العزة جميعاً، إليه يَصْعَدُ الكَلِم الطّيّبُ والعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ... » والتعاون «وتعاوَنُوا علي البرِّ والتقوي، ولا تعاوَنُوا علي الإثْمِ والعُدْوانِ... » والامانة «إنّ اللّه يَأمُرُكُم أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلي أهْلِها » والتواضع «واخفِضْ جَنَاحَكَ للمؤمنينَ » والإحسان «واحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللّه إليك » والتنافس علي كل القيم الخلقية والفضائل الإسلامية «وفي ذلِكَ فليتنافَسِ المُتَنافِسُونَ ».

لقد بني الإسلام صرحاً متيناً من معالي الاخلاق والمثل العليا كان له أثر بارز في بناء صرح حضارة عريقة، ولها الدور الكبير في صياغة شخصية الإنسان المسلم العربي، وقد تجسد كل ذلك تجسيداً حيّاً لكل تلك القيم والمثل الحقّة في الرسول الكريم صلي الله عليه و آله وسلم ومن بعده الائمة المعصومين الأبرار، فكانوا ثروة هائلة من الفضائل والقيم العليا، وقمة سامية من مكارم الأخلاق؛ حيث تحول المجتمع الجاهلي من

خلالهم إلي مجتمع حضاري، وبني جيلاً مؤمناً رسالياً من الأبطال والقادة الذين امتلكوا زمام الإنبعاث والبناء والتحرر، فكانوا عماد القوة الكبري التي اندفعت في الأرض ترفع راية الإسلام، وتعلن اسمه وتمدّ نفوذه من حدود الصين إلي حدود فرنسا، وتنشر تلك الروح في نفوس شعوب البلدان المفتوحة.

علي الصعيد الاجتماعي :

حطّم الإسلام رابطة المجتمع القبلي القائمة علي الدم والنسب، وأحلّ محلّها رابطة الإيمان والإشتراك في الدين الواحد، كما جعل المسلمين سواسية فأكرمهم عند الله أتقاهم ولقد اعتني الإسلام في بناء المجتمع وتنظيمه، فوضع له القواعد المحكمة التي توطّد الصلة بين أفراده علي أساس من المودة والرحمة والتعاون كما اهتم الإسلام بالدعامة الاولي للمجتمع وهي الاسرة التي من شأنها أن تؤدي إلي صلاح البناء كله، أي المجتمع بأسره.

وبعد تنظيم هذه الدائرة الضيقة انتقل الإسلام إلي تنظيم دائرة أوسع، وهي دائرة الاقارب وذوي الأرحام، يهدف من وراء ذلك إلي أن يكون الذين يمت بعضهم إلي بعض بأواصر الأبوة أو الأخوة أو المصاهرة، متعاونين متواسين متضامنين فيما بينهم، علي أساس من البر

والاحسان والتعاطف والمودة وبعد دائرة القرابة نظم الإسلام آصرة الجوار علي صورة واسعة، فجعل للجار حقوقاً كثيرة، وأوصي بمراعاة حرمة الجوار.

وبعد هذه الدوائر المتقاربة تجيء دائرة العلاقات الكبري التي تجمع الامة كلها، وقد أحكم الإسلام تنظيمها في القرآن والحديث، ووضع لها مجموعة من القواعد الاخلاقية السامية التي يؤدي اتباعها الي صلاح أحوال المجتمع ونهضته ورفعته.

فأسس مجتمع توثقت فيه الروابط، وحدّدت فيه الحقوق والواجبات، ووضع الاسلام له دستوراً عاماً للعبادات والمعاملات والجنايات والأحوال الشخصية وأقام اهدافاً علياً لصيانة المجتمع الاسلامي، وهي ثابتة لا تتغير ولا تتطور، تحافظ علي نسل الإنسان (بفرض حدّ الزني)، وعلي العقل (في حدّ شارب الخمر)، وعلي الكرامة الإنسانية (في حدّ القذف)،وعلي نفس الإنسان (في عقوبة قتل العمد)، وعلي الملكية الفردية (في حدّ السرقة) وعلي الدين (في حدّ المرتد)، وعلي الأمن (في حدّ قطّاع الطرق)، وعلي الدولة (في حدّ أهل البغي).

وشرّع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد في وحدة المجتمع الاسلامي وقوته، كالزكاة والصدقة والاحسان وصلاة الجماعة والحجّ،

وحرم الاعتداء علي أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم، وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة، وعصبية الجاهلية، واستبدل بها دعوة الدين.

وعالج حرية المرأة وفق روحه الدينية بقصد صيانتها ورفع شأنها عن ذي قبل،وأعاد لها كرامتها وصحح النظرة اليها، حاسماً كل جدل وكل تساؤل،معتبراً أن المرأة كائن انساني له روح انسانية كالرجل سواء بسواء، وأنّها نواة البشرية «يا أيُّها الناسُ اتّقُوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً » كما أعلن الرسول الكريم إنسانية المرأة بكلمة موجزة :«النساء شقائق الرجال» أي نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطبائع كأنهنّ شققن منهم.

وعلي ضوء ذلك أعطي الاسلام المرأة حقاً كاملاً غير مقيد بغير ما حرم الله ورسوله في جميع التصرفات المدنية والاقتصادية والشخصية، فلها الحق والأهلية لحيازة المال مهما عظم مقداره، ولها حق الإرث والهبة والوظيفة والدين وتملك العقار والكسب والتجارة والتقاضي والمصالحة والتصرف فيما تحوز وتملك من مال أياً كان نوعه، اتفاقاً وبيعاً وعتقاً وهبة ووصية «لِلرِّجالِ نَصِيبٌ ممّا اكْتَسَبُوا، ولِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبْنَ ».

كما نص القرآن الكريم نصاً صريحاً علي حق المرأة في اختيار شريك حياتها كزوج، ومساواتها له في الحقوق والواجبات وحقّها في الطلاق متي توافرت ظروفه، كما أعطاها الدين الاسلامي حق التعليم وطلبه والسعي لتحصيله، مثلها في ذلك مثل الرجل وذلك في قوله تعالي : «يَرْفَعِ اللّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أوتُوا العِلم دَرَجاتٍ » كما حث القرآن الكريم المرأة والرجل علي العمل، ولم يفرق بينهما،كل وما يخصه وحسب مقدرته وذلك في قوله تعالي: «وقل اعملوا فَسَيَرَي اللّه عَمَلكُم وَرَسُولَهُ والمُؤْمِنُونَ » فخصص الرجل بمسئوليات فردية تثقل كاهله كالانفاق علي المرأة ورعايتها والدفاع عنها، وترك لها إدارة شئون البيت وتربية الاطفال وغير ذلك من ضرورات الحياة.

فرفع الاسلام من مستوي المرأة، ووهبها من القوة والنشاط ما هيأها لتسير نحو المثل العليا، وتكون في طليعة المربيات الناجحات في الحياة، مرتكزة في ذلك علي دينها القويم وإيمانها العظيم كما حثها علي طلب العلم والمعرفة ونظم الامور.

ودعا إلي تحرير الرقيق وحذر من إساءة معاملتهم، وفتح أبواباً كثيرة لتحريرهم، فكثر العتق واستقامت معاملة الرقيق في رفق الإسلام

ورحمته، وقد أعطي مثلاً عملياً الرسول الأمين عليه السلام حين آخي بين عمّه حمزة وزيد مولاه، وحين زوج زيداً ابنة عمته زينب.

واعتبر الإسلام وحدة الجنس أساس الوحدة الإنسانية، فلم يعرف مجتمع الإسلام مفهوم العنصرية والقومية، بل صهر الاسلام ذلك كله وأقام منهجه الخالص، فارتقي الفرد وانتظمت شئون الأسرة، وأسست الجماعة علي قواعد صالحة تتضمن بقاءها ورقيها، وأقيم مجتمع ذو دعائم متينة من الحب والإخاء والمساواة والتكافل الاجتماعي والرحمة والبر، حتي لكأنّهم أسرة واحدة محيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية، وفوارق الشرف والسيادة الجاهلية.

علي الصعيد الإقتصادي :

ارتكز النظام الإقتصادي في الاسلام علي أصلين أساسين :

الأوّل : هو الاعتراف بمواهب الفرد وحقّه المقدس في ثمار عمله وكفاحه،والسماح له بحرية ضمن اطار القيم المعنوية والخلقية التي يؤمن بها الاسلام، ولم يكن ذلك التحديد تحديداً للحرية في الحقيقة، وإنّما هو عملية انشاء للمحتوي الداخلي للانسان الحر انشاءًا معنوياً صالحاً، حيث تؤدي تلك الحرية في ظله رسالتها الصحيحة.

فكان دوره الإيجابي الفعال في ضمانأاعمال البر والخير التي تتمثل في اقدام المسلمين بكامل حريتهم المتبلورة في اطار ذلك التحديد علي دفع الزكاة وغيرها من حقوق الله ، والمساهمة في تحقيق مفاهيم الإسلام في العدل الاجتماعي.

الثاني : تقرير حق المجتمع في كسب الفرد، ووجوب التضامن والتكافل الاجتماعي بين ابناء الامة، فوضعت الشريعة مبدأ اشراف ولي الأمر علي النشاط العام، وتدخل الدولة لحماية المصالح العامة وحراستها كما كفلت الشريعة في مصادرها العامة، النص علي منع ممارسة مجموعة من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المعيقة عن تحقيق المثل والقيم التي يتبناها الإسلام، كالربا والاحتكار وغير ذلك.

ومن المزج بين هذين الاصلين خرج الاسلام علي الناس بنظام خاص به يسمو علي كل الأنظمة التي سبقته والأنظمة التي تلته وبهذا النظام الاجتماعي والاقتصادي السليم الحكيم يتم دعم نظام الحكم في الاسلام، ويمكنه في يسر من تحقيق أهدافه وتثبيت أركانه وأدي هذا كله إلي استقرار أحوال الدول في ظل الحرية والاخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية.

ومن تلك الأهداف التي توجب علي الدولة تحقيقها : العمل علي انشاء المشاريع العمرانية،وانتهاج مختلف الوسائل الموصلة إلي ذلك الغرض، وتوفير أسباب المعيشة والحياة الحرة الكريمة للناس، وتنمية موارد الثروة في البلاد والبحث عن الوسائل التي تحقق إنجاز ذلك.

وعلي الرغم من أنّ غالبية العرب في الجزيرة العربية اعتمدوا في حياتهم علي تربية المواشي والأغنام والتجارة في عهد النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، ورغم أنّ المسلمين كانوا منهمكين في تعلم مبادئ الدين وفي توطيد الاسلام في نواحي الجزيرة وفي الدفاع عن حياتهم وعقيدتهم، فانّهم لم يهملوا زراعتهم، وكان الرسول صلي الله عليه و آله وسلم يشجع الزراعة ويقطع الاراضي غير المزروعة لمن يتعهدها بالري والاستثمار، ويدعو إلي إحياء الموات وهو ما يعرف حديثاً بالاصلاح الزراعي.

علي الصعيد الثقافي والأدبي :

كان العرب حتي ظهور الاسلام شعباً شبه منعزل، لم تتح له الفرصة الكافية في الاختلاط بالشعوب المتمدنة، فظل متشبثاً بتقاليده وأفكاره، محافظاً علي لغته التي تعتبر مظهر حياته العقلية ومرآة آدابه، ودليل أخلاقه.

ولم يكن هناك علمٌ منظم، ولا علماء يدونون قواعده، ولا دين واحد يجمعهم تحت لوائه؛ بل كانوا طوائف مبعثرة، متنافسة، متناحرة فميا بينها، يسودها الجهل والامية والفقر والامراض، فكان ظهور الاسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة.

وحيث أن الفصاحة والبيان أمدّ سبباً إلي النفوس، لذا فقد جذبهم القرآن ببلاغته وسحر بيانه واعجازه وأحكام أساليبه، فقادهم من ألسنتهم لأنّها مفاتيح أرواحهم وأخذ الفكر الجديد يشق لنفسه طريقاً جديداً فيصبح هو الناطق للدعوة الجديدة توّجت بانتصاراتها وبنشر فكرها في تطهير العقيدة وبناء المجتمع بصيغة جديدة وفق قواعده، فتمكن من صهر الصراعات وغليان الصدور والعصبية في بوتقة الجهاد، فانعقدت قلوبهم عليه، واستقاموا لدعوته.

كما أكد علي المبادئ الأخلاقية التي تحلي بها العرب قبل الإسلام كما ذكرناها مفصلاً فكان لها أثر واضح لتلك الروح التي تحملت الصبر في مجال حمل الدعوة ونشرها في نفوس شعوب البلدان المفتوحة وبذلك انتقل الشعر والنثر من طور إلي طور بعد أن كان تعبيراً عن اهواء النفوس ونوازع الأثرة والعنف والانتقام، والشجاعة الطائشة، والتباهي بالظلم، أصبح ناشراً للمبادئ فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد

المفاخرة والمنافرة والهجاء، والخطيب الذي يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء، وقفوا صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلاّ ما يأمر به اللّه أو يقرّه الرسول، وأصبح القرآن والحديث دستور الامّة، يسنّان الشرائع، ويرسمان الآداب، ويهذبان الاخلاق، فتخرّج رجال من جامعة الإسلام كانوا قمّة في الايمان واليقين وعلو النفس وصفاء الطبع ورقّة الجانب وبسط الجناح، فكانوا مثالاً للخَلَق الإنساني الرفيع.

كما اتصل العرب المسلمون بالأمم الاجنبية، حتي أصبح اختلاطاً، ثم امتزاجاً، فنشأ عنه أن اطّلع العرب علي ما كان لهذه الأمم من آراء وأفكار وديانات وعلوم وفلسفات، ونشأ عن ذلك كله أن تغيرت الحياة، وتغيرت موضوعات التفكير، واستلزم ذلك أن تتغير العبارة التي كانوا يعبّرون بها عمّا في أنفسهم، فنشأ لهم لسان جديد لم يكن لهم من قبل وهو النثر الذي يعبر عن المعاني بدون القيود الشعرية.

علي الصعيد السياسي :

قامت دعوة الاسلام علي أساس تنظيم الشئون الدينية والدنيوية للبشر عامة، فالإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة والعقيدة : هي الجانب النظري في الاسلام الذي يطلب الايمان به أوّلاً وقبل كل شيء، وقد

تضافرت النصوص القرآنية الواضحة علي تقريرها، وهي أوّل ما دعا إليه الرسول، وقد أجمع المسلمون عليها كالايمان باللّه وحده لا شريك له، والايمان بملائكته وكتبه ورسله وبالبعث والحساب، وهذه هي أركان العقيدة التي يقوم عليها البناء الروحي للدولة الاسلامية.

والشريعة : هي النظم التي شرعها اللّه أو شرع أصولها، ليأخذ الانسان بها نفسه وفي علاقته بربّه وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم وعلاقته بأخيه وسبيلها تبادل المحبة والتناصر علي الدوام وعلاقته بالكون وسبيلها حرية البحث والنظر في الكائنات واستخدام آثارها في رقي الانسان وعلاقته بالحياة وسبيلها التمتع بالحلال من طيبات الحياة دون إسراف.

وقد عبّر القرآن في كثير من آياته عن العقيدة بالايمان، وعن الشريعة بالعمل الصالح كقوله تعالي : «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » ويلاحظ ان العقيدة هي الأصل والأساس الذي تبني عليه الشريعة، وعلي ذلك فانّ الشريعة تعتبر أثراً تستتبعه العقيدة بحيث لا تقوم الشريعة بدون العقيدة، فهما أمران متلازمان مترابطان بحيث لايصح اهدار احداهما والابقاء علي الآخر فالعقيدة أصل يدفع الي الشريعة، والشريعة تلبية واستجابة لانفعال القلب بالعقيدة.

فأوّل أساس ارتكز عليه نظام الحكم هو التوحيد، وهو أوّل ركن من العقائد الاسلامية ومعني التوحيد أن اللّه هو خالق الكون وما فيه، وله وحده الحكم والسلطان والامر والنهي «قل ان الأمر كلّه للّه ».

فلمّا كان الحكم للّه ، فليس لأحد وإن كان نبياً أن يأمر وينهي من غير أن يكون له سلطان من اللّه ، والنبي لا يتبع الاّ ما يوحي إليه، وما وجبت علي الناس طاعة النبي الاّ لانّه لا يأتيهم الاّ بالاحكام الالهية «وما أرسلنا من رسول الاّ ليطاع بإذن اللّه فاطاعة اللّه تتحقق بالعمل بالقرآن؛ لانّه هو الذي يحوي أوامر اللّه ونواهيه، وهو المصدر الأول من مصادر التشريع.

وأمر اللّه بطاعة الرسول؛ لانّه هو الذي يبيّن لنا أحكام الشرع ومقاصده، ففي القرآن والسنة أصول الدستور الاساسي الذي ينهض عليه صرح النظام الاسلامي والنظام الذي وضع الاسلام أصوله يستلزم وجود دولة وذلك بقصد إمكان تطبيق أحكامه علي رأسها حاكم يتمتع بسلطة هدفها تحقيق مصلحة الأمة في مختلف نواحي الحياة.

فالاسلام لم يأت فقط بالعقيدة الدينية وحدها،ولا بالنظام الأخلاقي المثالي الذي يرتكز عليه المجتمع، وانّما أتانا بجانبي العقيدة والنظام الأخلاقي بشريعة محكمة عادلة تحكم الانسان في مختلف تصرفاته ومعاملاته، وذلك بالنسبة لنفسه وفي علاقته مع أسرته ومع مجتمعه

الذي يعيش فيه ومع المجتمعات الأخري قال اللّه تعالي : «والعصر إنّ الانسان لفي خسر الاّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر » أي أنّ الايمان الذي يحسب المسلم أنّه قد استكمله، والعمل الصالح الذي يقوم به كل مسلم ترجمة لهذا الايمان، لا يكفيان لانقاذ الانسانية من الخسران، انْ لم يقترن هذا الجهد الفردي بجهد جماعي، فيساهم المؤمن مع بقية الافراد والجماعات في التواصي بالحق، ولما كان تأييد ما يقتضيه الحق في المجتمع تعترضه عوائق وعراقيل وجب علي المؤمنين التواصي بالصبر علي كل ما يتطلبه الجهاد في سبيل الحق.

لذا بيّن الاسلام حقوق كل فرد نحو الآخرين، واقام نظام الاسرة علي قواعد واضحة، وبين علاقة الأسرة بالأمة، وعلاقة الحاكم بالأمّة عامة وبالأفراد خاصة ثمّ عرض لعلاقة الأمة بغيرها من الأمم في حالتي الحرب والسلم، وعرض للنظام الاقتصادي فوضع له أصولاً حكيمة سليمة، وتناول كذلك النظام الاجتماعي فاقامه علي أساس الاعتراف بالقيم الخلقية، وازع الضمير أوّلاً، ثم تحكيم القانون ثانياً.

وإذا نشأت عقبات تحول دون تحقيق المجتمع لأهدافه وغاياته السامية، وحتي يمكن التخلص من هذه العقبات التي تعرقل سير المجتمع

وتطوره وتقدمه، أوجب أن توجد سلطة زمنية تكون مهمتها تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية، ولا تستطيع هذه السلطة الوفاء بهذه المهمة إلاّ اذا منحت حق الأمر والنهي في الجماعة بخصوص المسائل الاجتماعية لتنظيم علاقات الأفراد ببعضهم، هذه السلطة انما يراد بها الحكومة، وإذا وجدت هذه الحكومة تنشأ الدولة وتنسب إليها السلطة، ويقع علي عاتقها مهمة تصريف شئون الجماعة في الداخل والخارج مثل اقامة العدل، والمحافظة علي الامن في الداخل، والدفاع عن سلامة الدولة ضد الاعتداء الخارجي، كما أن هناك واجبات تتعلق بالعمل علي رفع مستوي الشعب من النواحي الاقتصادية والثقافية.

فكان لاقامة دولة اسلامية ضرورة لابد منها لإمكان تطبيق النظام الاسلامي، وانتهاج المجتمع في معيشته سبيل الحياة الاسلامية في صورتها التامة الكاملة النافعة المستوحاة من الشريعة المستمدة من كتاب اللّه وسنة رسوله، وفيهما بيان ناصع لما هو عدل وما هو ظلم في كل شئون الناس والحياة.

وعلي هذا الأساس تكوّن قانون للعرب سماوي عام مطلق أبدي خالد، أساسه العدل وهدفه خير البشر، جمع بين السلطتين الروحية والزمنية، فخلق الاسلام حكومة ووضع لها نظاماً ودستوراً كسب للعرب وحدتهم

السياسية الكاملة بعد انْ كانت اطرافها تخضع لنفوذ الامم القوية المجاورة، فذهبت هذه التبعية الي غير رجعة، وصار العرب يخضعون لحاكم واحد هو رسول اللّه صلي الله عليه و آله وسلم يحكمهم بما أنزل اللّه ، فتجمعت الأهواء المتفرقة، وتآلفت القلوب المتنافرة، وكوّن من قبائل العرب امة لها وحدتها، وقفت فيما بعد في وجه اعظم امبراطوريتين في ذلك الزمان وقضت عليهما قضاءً نهائياً.

يقول الامام عليّ عليه السلام : «فانظروا إلي مواقع نعم اللّه عليهم حين بُعِثَ إليهم رَسُولاً، فعقدَ بملَتِهِ طاعتَهُم، وجمعَ علي دعوتِهِ ألفَتُهم : كيفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عليهم جناح كرامَتِها، وأسالَت لهم جداوِل نَعيمِها، والتَفّت الملّةُ بهم في عوائدِ بركتِها، فأَصْبَحُوا في نِعْمَتِها غَرِقين، وفي خُضْرَةِ عَيْشِها فَكِهين قد تربَّعَتِ الامورُ بهم في ظلِّ سُلطانٍ قاهرٍ، وآوَتْهُمُ الحالُ إلي كَنَفِ عِزٍّ غالبٍ، وتعطّفتِ الامورُ عليهم في ذُرَي مُلْكٍ ثابت. فَهُم حُكّامٌ علي العالمين، ومُلُوكٌ في أطرافِ الأرَضين، يَمْلِكُون الأُمُور علي من كانَ يَمْلِكُها عليهم، وَيُمْضُونَ الأحكامَ فيمن كانَ يُمضِيها فيهم! لا تُغْمَزُ لَهُم قناةٌ، ولا تُقْرَعُ لهم صَفَاة».

أما سرّ خلود المبادئ الاسلامية فيكمن في :

1 عظمة تلك المبادئ : والتي تتلخص في العدالة التامة والتكامل الاجتماعي الحق والاخاء والمساواة، والامانة والحرية والاحسان وحسن المعاملة.

2 مثالية الإسلام.

3 حيوية الإسلام.

4 روح الإسلام الثورية.

5 دعوته إلي العمل.

6 اهتمامه بالعلم والثقافة والمعرفة.

7 ديمقراطية الاسلام.

8 توفر العناصر الحضارية فيه، والتي تتمثل في عمله من أجل التقديم والنهوض واليقظة والتجديد، وفي إيجابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشره لكل القيم النبيلة.

وختاماً :لقد كان الاسلام دستوراً كاملاً شاملاً لكل ما في الحياة، وهو يستجيب لكل ما يطرأ علي المجتمعات الانسانية من تطور، نظراً لمرونته واتساع آفاقه، فهو يتماشي مع الظروف والزمان والمكان.

obeikan.com

والدستور الاسلامي فيه أصول العقيدة، وفيه القوانين، ويتضمّن فلسفة الحكم ومبادئ الاخلاق، كما أنه يشتمل علي أصول النظام الاقتصادي، وأسس العدالة الاجتماعية.

obeikan.com